

الصراع اللغوى

اللغة كما سبق تقريره فى مواضع عدة كائن حى ، يجرى عليه ما يجرى على سائر الكائنات الحية ، من عوارض مكانية وزمانية ، فهمى تمر فى نشأتها بأحداث الطفولة ، ثم تشب عن الطوق لتعيش فترة من الشباب والتحفز ، ثم تسكتمل أدواتها ، وتنفى بعناصر القوة والثراء ، ثم تشيخ فى نهاية الأمر ، وقد ينتهى أمرها إلى الموت أو الانقراض .

واللغة ليست كائنات منعزلا يعيش فى فراغ ، وإنما هى كائن اجتماعى ، يتغذى من الأحداث الاجتماعية ، ويتأثر بعوامل التطور التاريخى ، ولذلك تعكس لنا اللغة دائماً حال المجتمع وصورته ، من تخلف أو حضارة ، ومن رقى أو انحطاط ، ومن هنا كان من اليسير على الباحثين معرفة حقيقة أى مجتمع من خلال النظر فى لغته ، التى هى سجل أمين لكل تفصيلات حياته الاجتماعية .

والمجتمع اللغوى ليس مجتمعاً معزولاً عن سائر المجتمعات ، وإنما هو يعيش وسط خضم من اللغات المختلفة ، والجماعات المتباينة ، وهو مضطر ، خضوعاً لنسبة الحياة ، أن يخالط هذه المجتمعات ، وأن يطلع على مآلديها ، وأن ينشئ صلات سياسية واقتصادية وثقافية بالفريق منها والبعيد ، ولعل هذا الجانب هو أهم ما تكشف عنه الجغرافيا اللغوية ، حين تنجز خرائطها ، وترسم حدود الظواهر اللغوية أو اللهجية ، فى تماسها أو اختلاطها .

والعلاقات بين المجتمعات المختلفة لا تدوم على حال واحدة ، وإنما هى تتقلب بين الود والصدام ، والحرب والسلام ، ولكل معركة ظروف ، ونتائج ، أبسطها النتائج العسكرية ، وأهمها وأخطرها النتائج الاجتماعية التى تشمل التأثير فى اللغة ، ذلك الكائن الاجتماعى .

ومعنى ذلك أن الاحتكاك بين المجتمعات قدر من الأقدار الحضارية
التي تؤثر في حياة اللغة بالسلب أو بالإعطاء ، وبالتقوية أو بالإفناء .
وللاحتكاك صورتان :

الأولى : الصورة العنيفة التي تتمثل في الحروب بين مجتمعين من لمتين
مختلفتين .

والثانية : الصورة المائدة التي تتمثل في قيام علاقات صداقة وجوار بين
هذين المجتمعين ، وإليك حديثا مفصلا عن كلتا الصورتين .

الحالة الأولى : حالة الغزو المسلح

قد يحاول مجتمع ما أن يغزو مجتمعا آخر، بواسطة القوة الحربية، وتنتهى المحاولة - افتراضاً - بانتصار الغازى ، بفضل ماتوفر لديه من جند ومعدات ، وظروف زمنية ساعدت على تمام نصره ، ويلقى المجتمع المهزوم السلاح ، ويستسلم للوضع الجديد .

وقد يحدث على إثر هذا الانتصار أن تهاجر مجموعات من الشعب الغازى إلى الأرض الجديدة المقهورة ، وهى تنطق بلغة غير لغة أصحاب البلاد ، وهنا يبدأ - مع مرور الوقت - صراع بين اللغتين ، الغازية والمغزوة ، وليس من الضرورى أن ينتهى هذا الصراع بنفس نتيجة المعركة الحربية ، لأن للصراع اللغوى ظروفه الخاصة به ، والتى تختلف اختلافاً كبيراً عن طبيعة الممارك الحربية . والشعب المقهور قد يكون أصلب ، ودا فى تمسكه بلغته منه فى تمسكه بسلاحه ، وقد يكون مستسلماً على طول الخط .

والنهاية أحد احتمالين : فإما أن تنقصر إحدى اللغتين على الأخرى ، فتصبح لغة مشتركة بين جميع السكان ، غايزهم ومغزوهم ، وإما أن تضعف كل منهما عن هزيمة الأخرى فتتمايش اللغتان على صعيد واحد .

وعلى أية حال فإن الذى يتحكم فى هذه النتيجة ليس قوة الجيش ، ولا روعة الانتصار فى المعركة الحربية ، وإنما الذى يتحكم أحد عاملين ، أو هما ، وذلك من الوجهة النظرية :

العامل الأول : درجة الحضارة ، وهو (الكيف) ، إيجاباً أو سلباً .
وهو فى الواقع العامل الجوهرى .

العامل الثانى : عدد الغزاة ، وهو (السك) .

فإذا تساوى الشعبان فى عدم الحضارة : بأن كانا متخلفين بدائيين ، فإن نتيجة الصراع تتوقف حينئذ على كثرة العدد وقلته ، فالنصر يكون للأكثر عدداً ، لأن العدد القليل سوف يفرق وسط طوفان بشرى ، فلن يظهر له أثر . والسرى فى ذلك أن العدد الكبير سوف يشعر بأنه متحصن وراء لغته ، على حين تغنى الأقلية التى لا وزن لها من الناحية الثقافية ، فهى لن تحدث أثراً ، ولن تبذل مجهوداً فى ذلك الصراع ، والنتيجة فى هذه الحال طبيعية . ويزيد من سرعة الانتصار أن تكون اللغتان المتصارعتان من فصيلة واحدة ، أو من فصيلتين متقاربتين .

وقد حدث فى الواقع مثل هذا حين نزع الإنجليز السكسونيون ، من أواسط أوربا إلى انجلترا ، فتغلبت لغتهم على اللغات السلتية ، التى كان يتكلمها السكان الأصليون ؛ وذلك لأن عدد السلتيين بهذا الإقليم كان قليلاً بالقياس إلى عدد المغيرين ، وكلا الشعبين كان هجياً بدائياً ، ومن ثم انتصرت لغة الأكثرين على لغة الأقلين ، التى هى من نفس فصيلتها : الهندية الأوربية .

فهذا مثال على انتصار لغة الشعب الغازى .

وحيثما غزا النورمانديون انجلترا ، واحتلوا معظم أقاليمها ، كانوا هم فى الواقع قلة بالقياس إلى عدد الشعب المتهور ، ولذلك لم تلبث لغة النورمانديين أن تلاشت أمام اللغة الانجليزية ، فأصبح جميع السكان يتحدثون الإنجليزية ، سواء منهم الإنجليزى الأصل ، أو النورماندى الأصل^(١) . ويلاحظ أن كلا

(١) علم اللغة للدكتور وافي / ٢٠٩

الشعبين كان مجرداً من الثقافة الراقية في ذلك العهد ، كما أن لغتيهما تنتميان إلى فصيلة واحدة ، هي الفصيلة الهندية الأوروبية .

فإذا اختلفت اللغتان من حيث أصلهما كان من الصعب تغلب إحدهما على الأخرى ، حتى مع توفر العدد في أحد الجانبين عنه في الجانب الآخر .

وإذا كان أحد الشعبين متفوقاً في درجة الحضارة عن الشعب الآخر ، فإن التفوق الكيفي يكتسح أمامه أى تفوق كمي ، في أى جانب كان . فإذا كانت الحضارة للشعب الغازي اكتسحت لغته لغة الشعب المقهور ، مهما يكن عدد النازحين منه إلى الأرض الجديدة قليلاً ، ولكن يشترط في هذه الحالة أن يطول زمن سيطرته على هذه الأرض ، حتى يمكن تحقيق نتيجة حاسمة للصراع اللغوي ، كما أنه لا بد من استمرار إقامة مجموعة كبيرة من أبنائه بين مجموعات الشعب المغزو ، وتحاول هذه المجموعة الاختلاط بأفراد الشعب ، على جميع مستويات الاتصال ، اجتماعياً وثقافياً .

والسر في ذلك ظاهر جداً ، لأن الشعب الغالب يملك إلى جانب قوته المادية قوة حضارة لا تتوفر أدواتها للشعب المغلوب ، ومن الضروري لفائدة الصراع أن يتحول من المستوى العسكري إلى المستوى الحضاري ، الذي يدرك المغلوبون خلاله أنهم بحاجة إلى استيعاب أصول الحضارة الجديدة وقواعدها ومظاهرها .

ومن لوازم كل حضارة جديدة أنها تصطبغ معها ثروة في الكلمات الخاصة بالتعبير عن أشياءها ، وعن أفكارها . والأشياء في الحضارات دلائل على الأفكار ، ومن هنا تصبح محاولات الحضارة الجديدة أشبه بدروس

وتعاليم يلقها أفراد الشعب المغلوب ، ويحاولون تمثلها واتباعها ، ابتداء من مجرد الإعجاب بها ، إلى حد اعتقادها والدفاع عنها ، وهكذا يتم للغالبين السيطرة والانتصار في المعركة اللغوية ، بسيادة لغتهم على لغة المغلوبين ، مهما يكن عددهم كبيراً ، فالكم لا قيمة له بجانب الكيف .

ومن الأمثلة على ذلك أن فتوح الرومان في وسط أوروبا وجنوبها وشرقها تبعها تغلب اللغة اللاتينية على اللغات الأصلية لإيطاليا وأسبانيا وبلاد الغال (فرنسا الآن) ، مع أن الرومان الغزاة كانوا أقلية بالنسبة إلى السكان الأصليين في هذه المناطق الشاسعة .

ونحن نعرف جميعاً ما أحدثته فتوحات العرب في صدر الإسلام للشام والعراق ومصر والشمال الإفريقي ، فقد اكتسحت العربية أمامها اللغات التي كانت سائدة في تلك البقاع الواسعة ، والأوطان المتناثرة : اكتسحت الآرامية في الشام والعراق وفلسطين ، واكتسحت القبطية في مصر^(١) . واكتسحت البربرية في الشمال الإفريقي ، والكوشية في الشرق ، وحلت محل هذه اللغات في أوطانها .

والسر في ذلك كما نعلم أن العرب كانوا دعاة حضارة جديدة يحملها دينهم الجديد ، على حين كانت هذه الأمم رازحة تحت نير الاستعمار الروماني أو الفارسي ، الذي وثب إليها في غفلة من الزمن ، وجهالة من أصحابها ، فلم تكن الشعوب في تلك البلاد ذات رسالة حضارية ، وإنما كانت تستشعر

(١) انظر مقدمات فتح العرب لمصر ، والتي تمثلت في هجرات كبرى تاريخية إليها لبان العصر الجاهلي في كتاب (البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب) للقرظي ، مع دراسات عن تاريخ العروبة في وادي النيل ؛ للدكتور عبد المجيد عابدين / ٧٧ وما بعدها .

المهانة والذل ، من تصرفات المستعمرين المستبدين ، فلما جاء العرب ، وهم ولا شك قلة بالنسبة إلى أى شعب من هذه الشعوب ، جاءوا وفي أيديهم مشعل الحضارة والإيمان ، مشعل العدالة الاجتماعية ، والمساواة بين الناس . دون نظر إلى الجنس أو اللون أو المستوى المادى ، مشعل الحرية والأخوة الإنسانية ، والتعاليم الأخلاقية ، فاستهوت دعوته القلوب . ولذلك هبت الشعوب من فورها مستجيبة لداعى الحضارة الجديدة ، ولفتها الجديدة أيضاً .

ويذكر الدكتور على عبد الواحد وافي أن انتشار اللغة العربية في مصر كان بطيئاً طوال القرن الهجرى الأول ، وقبيل نهاية هذا القرن ، أى في سنة ٨٧ هـ ، وفي ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر ، من قبل أخيه الوليد ابن عبد الملك بن مروان ، أمر بالدواوين فتسخت بالعربية ، وكانت من قبل تكتب بالقبطية ، ثم نقل نصاً آخر عن دائرة المعارف الإسلامية : « أن الدواوين في مصر كانت تكتب باليونانية لا القبطية » وهو الأصح ، وظل التحول من الكتابة باليونانية في الدواوين ، والتحدث بالقبطية ، إلى الكتابة والتحدث بالعربية بالتدريج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، حتى كان القرن الرابع كانت غالبية الشعب المصرى تتكلم العربية ، ولا يفهم أفرادها القبطية ، بدليل أن رجال الكنيسة أنفسهم اضطروا في هذا القرن الرابع أن يلقوا مواعظهم في الكنائس باللغة العربية ، وليس معنى ذلك أن القبطية كانت قد انقرضت كل الانقراض في هذا العصر ، فالحقيقة أنها ظلت باقية في أسنة بعض المناطق مدة طويلة بعد ذلك . بدليل ما يذكره المقرئ من أن المأمون كان يفتقل في ريف مصر ومعه مترجم^(١) .

(١) المرجع السابق / ٢١٢ هامش

وهذا الذى يذكره الدكتور وافي يدلنا على أن انتصار اللغة الغالبة ،
يرغم ما تحمل من دعوة حضارية يحتاج إلى عدة قرون ، وأن المعركة تستمر
عدة أجيال كثيرة ، إلى أن يستتب لها الأمر ، بعد أن تمر بمراحل كثيرة .

بيد أن هذا الانتشار الساحق للعربية ، والذى ارتبط بدعوتها الحضارية
ارتباطاً سافراً ، لا يعجب اللغوى فندريس ، الذى يقرر أن هناك عنصر اعاطفيا
قد يتصدر أسباب انتصار بعض اللغات ، وهذا العنصر العاطفى ينحصر فى
الهيبة التى تتميز بها بعض اللغات ، وضرب لذلك مثلاً بحال اللغة الإغريقية
فى مواجهة الغزو التركى ، وذلك لأن إرادة الإغريق فى ألا يضحوا ببلقهم
أمام لغة فاتح يحتقرونه هى التى حفظت الإغريقية خلال العصور ، فلم تستطع
التركية يوماً أن تحل محلها ، أو حتى تنال منها ، رغم سيطرة اللغة التركية
على الأجهزة الإدارية^(١) .

كذلك يرجع إلى هذه الهيبة انتصار اللغة اللاتينية فى المجال الذى غزته
جغافل الرومان فى أوربا ، فما كان للاتينى أن يرضى بتعلم إحدى اللغات
المعتبرة ، ولذلك قضت اللاتينية فى إيطاليا نفسها على الأترسكية والأسكية
والأمبرية .

ولكنه يعود فيربط هذه الهيبة بمعنى الحضارة التى يمثلها أصحاب اللغة
الهيبة ، فيقول : كثيراً ما يكون لهيبة اللغة ما يبررها من قيمتها الذاتية ،
وهذه القيمة فى حالة اللغات الإغريقية تعتبر شيئاً كبيراً ، لأنها تفوق بكثير
كل ما يمكن أن يضاف للغة التركية من فضل ، فالتركية ، وهى لغة الفاتحين ،

ليست بأية حال من لغات الحضارة ، وما كانت تستطيع الكفاح ضد اللغة الإغريقية التي تمثل ثقافة من أعرق الثقافات ، وربما كان لفندريس حق ما في هذا التفسير للصراع التاريخي بين التركية والإغريقية .

لكننا نجد بعد ذلك يتمجب من القدرة على الانتشار التي حققتها بعض اللغات الهندية - الأوربية ، أو السامية كاللغة العربية ، وهي ترجع بلاشك - كما قال - إلى أسباب معقدة^(١) !!

فما هذه الأسباب المعقدة ؟ - لقد حاول فندريس أن يغمض عينيه عن جوهر الحضارة الذي حملت العربية رسالته ، وتولت مهمة البيان عنه أمام الإنسانية كلها ، وذلك الجوهر هو (الإسلام) ، وليس الإسلام (بالأسباب المعقدة) ، ولكن الطريقة الأوربية في النظر إلى تاريخ البلاد الإسلامية والعربية هي المعقدة .

والعجيب أن فندريس على جلالة قدره يعمى عن الحقيقة في صراع التركية مع الإغريقية ، فيرجع ذلك إلى تفوق الإغريقية حضاريا ، وعجز التركية وانحطاط مستواها . برغم أنها لغة الفاتحين ، وهو في هذا يتجاهل - عن عمد - حقيقة فرضت نفسها على أقدار أوروبا قرونا عديدة ، هذه الحقيقة هي أن الأتراك كانوا أرقى من اليونانيين حضاريا ، لأنهم كانوا يحملون رسالة الإسلام ، وقد كانت تركيا بالإسلام أرقى وأقوى الأمم الأوربية . لقد كان الأتراك أسرع شعوب أوروبا استجابة لرسالته ، غير أنهم لم يحسنوا حمل هذه الرسالة^(٢) ، وأضعف من قدرتهم على الانتصار في الصراع اللغوي

(١) السابق

(٢) حمل الأتراك الإسلام كسلطة زمنية ، ولم يمثلوه كقيم حضارية . وبذلك تحولوا بعد مرحلة قليلة نسبياً ، إلى قوة بطش وطفان ، بعيدة عن المنزى الحضاري والروحي لرسالة الإسلام التي جاءت رحمة للعالمين .

أن لفهم لم تكن لغة الحضارة التي يمثلونها ، بل كانت مزيجاً مختلطاً من ألفاظ تركية أصيلة تنتمي إلى الفصيلة الطورانية ، وأخرى عربية إسلامية تنتمي إلى الفصيلة السامية ، وما كان لهذا الخليط الملتق أن ينتصر على كل منسجم متوافق ، منتم إلى أصل واحد ، هو اللغة الإغريقية ، فهزيمة التركية في هذا الصراع ترجع إذن إلى أسباب لغوية أكثر من أن تكون حضارية.

وقد كان اختلاط التركية بالعربية في أصواتها ، وفي ألفاظها ، وفي رموزها الكتابية يكاد يفصلها عن فصيلتها الطورانية ، ليلحقها بالفصيلة السامية. وقد سبق أن قررنا أن الانتصار في الصراع اللغوي يكون أيسر إذا ما كانت اللغتان المتصارعتان من فصيلة واحدة ، وهو ما لم يتوفر في حالة الصراع بين التركية والإغريقية ، فالتركية طورانية ، والإغريقية هندية - أوروبية .

وأغلب الظن أن هذا الصراع لو نشب بين العربية ، وهي لغة الحضارة الإسلامية ، وبين الإغريقية ، على ما تتمتع به من أصل عريق - لتغلبت العربية على الإغريقية ، واكتسحتها في مواطنها ، كما تحت كل أثر لها من مصر ، أرض الاحتلال الإغريقي . والسبب في ذلك حينئذ هو تفوق المفهوم الحضاري لدى العرب عن المفهوم الحضاري عند اليونانيين ، وارتقاء اللغة العربية ارتقاء حضارياً عن اللغة الإغريقية ، وهي نتيجة غير مستبعدة الحدوث برغم اختلاف اللغتين من حيث أصلهما .

فإذا حدث العكس ، وهو أن يكون الشعب المفزوق أرقى حضارة من
الشعب الغايزي ، فإن النتيجة حينئذ بدئية ، وهي استعالة انتصار الهمجية ولو غلبت ، على المدنية ولو قُهرت ، فهذا الانتصار مؤقت دون شك ولا بد أن يسترد الشعب المتحضر المقهور شخصيته ، عاجلاً أو آجلاً .

والاحتمال الثالث في هذه القضية هو أن يكون الشعبان ذوى حضارة عريقة ، فلفة كل منهما قوية راقية . وحينئذ لا يمكن أن نجد لهذا الصراع أى أثر لغوى ، وإنما يكاد ينحصر أثره في الميدان الاقتصادي أو السياسى .

ومن الأمثلة على ذلك صراع الألمانية مع الفرنسية في داخل سويسرا ، ففي الشعب السويسرى قسم يتحدث الفرنسية ، وقسم آخر يتحدث الألمانية ، وكل ما يحدث هو أن تطرد الألمانية الفرنسية من إحدى القرى ، أو العكس ، دون أن يقال : إن الصراع بين اللغتين قد أضفى أثراً معيناً على إحداها من من الأخرى .

وليس هنالك مقياس معين يفرض إحدى اللغتين على السكان ، دون الأخرى ، فاللغتان في حالتنا هذه متساويتا القوة ، ولكن المصلحة العملية لسكان القرى هى وحدها الحكم في مثل هذه الحالة ، وهى التى تحكم لهذه اللغة أو تلك ، وقد تبقى اللغتان زمناً طويلاً في حالة تعادل .

ولقد يكون للعامل السياسى أثر كبير في حسم نتيجة الصراع اللغوى ، حتى بين اللغتين غير المتكافئتين ، وقد برز هذا العامل في العصر الحديث ، حين وجدنا كثيراً من الشعوب المستعمرة ، والمتخلفة ، تعتمد إلى إحياء لغتها ، كوسيلة إلى بث شخصيتها ، وقصداً إلى إذكاء روح الكفاح في الأفراد من أبنائها ، في مواجهة لغة المستعمرين المتحضرين . وقد قفز الوعي بأهمية اللغة في الصراع من أجل الحرية قفزة عظيمة في السنوات الأخيرة ، وخرجت إلى الوجود لغات إفريقية وآسيوية ما كان لها أن تنبثق ، لولا الشعور بالحاجة إلى درع لغوى يتحصن به الكفاح السياسى .

ففي حالة الجزائر مثلاً سيطر الاستعمار عليها مائة وثلاثين عاماً ، حاول خلالها أن يدمر كل رابطة تربطها بالإسلام والعربية ، لينفرد بها لقمة سائغة ، وقد كان لدى الفرنسيين تخطيط شامل لهذا التغير الجذري ، يبدأ بالطفل الجزائري ، إلى أن يصبح الطفل رجلاً كبيراً متعاملاً مع المستعمرين بلقتهم وبأسلوبهم ، يؤازرهم في ذلك تفوق في المفهوم الحضاري ، وهجرة هائلة غطت التراب الجزائري كله ، وسياسة تقضي على كل أمل في تدارك الخطر . حتى لقد سادت الفرنسية كل مستويات النشاط الثقافي ، فكان المفكرون والأدباء والصحفيون ، ومن دونهم من أبناء الشعب - يتكلمون ويستعملون الفرنسية رسمياً وشعبياً ، ويجهلون العربية ، إلا بضع كلمات .

غير أن بعض المصلحين الجزائريين ، وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس ، أدركوا أن المعركة من أجل الحرية يجب أن تبدأ باستعادة اللسان العربي ، فأنشأ الرجل (جمعية العلماء) التي أنشأت الكتاتيب في المساجد والزوايا ، لتعليم اللغة العربية ، وتحفيظ القرآن الكريم ، وأقبل الناس على هذه الكتاتيب ، مضحين بكل الميزات التي ضمنها للمستعمر لرواد مدارسه ، كانت هذه في الواقع بداية النهاية للاستعمار في أرض الجزائر ، وهي الأرض الصلبة التي جرت عليها المعركة الضارية قرابة ثمانى سنوات من الثورة المسلحة .

وهاهي ذى معركة التعريب في الجزائر على قدم وساق ، تحاول أن تضع اللمسات الأخيرة لرسم وجه الجزائر العربي المسلم ، على رغم تشويه الاستعمار وتشويشه أيضاً ، فقد استرد الشعب الجزائري روحه حين استرد لسانه العربي .

ولقد نجد مثلاً آخر من هذا القبيل في الصومال ، حيث كانت تسيطر إيطاليا وفرنسا ، وحيث حاول الاستعمار فرض لغته على أبناء البلاد ، فإذا

بهم وقد نالوا حريتهم يحاولون بعث اللغة الصومالية ، التي لم تكن إلى عهد قريب لغة مكتوبة ، وهم يحاولون وضع نظام كتابي لها على أساس الرموز اللاتينية ، لتصبح من بعد ذلك لغة الدولة الصومالية ، بعد أن فشلت للأسف محاولة وضع نظام عربي لكتابتها . لأسباب لعب فيها الاستعمار دوره ، وأكلت الماركسية بقية المهمة ، لتفصم ما بين الشعب الصومالي ودينه ولغته .

فهذه هي المظاهر العامة للصراع اللغوي ، الذي يبدأ بغزو يعتمد على القوة المسلحة ، ثم تحدث من بعده هجرات ذات طابع معين ، وهذه هي القواعد التي تحكم ذلك الصراع .

الحالة الثانية : حالة الجوار بين اللغات

والصراع في هذه الحالة سلمى ، لا تتحكم فيه عوامل هزيمة عسكرية ، ولا غطرسة فاتحين منتصرين ، وإنما يتحكم فيه بالدرجة القصوى مسألة تفوق إحدى اللغتين حضارياً عن الأخرى ، كما قد يؤثر فيه التفوق العددي .

فمن حالات هذا الصراع أن ينمو أحد الشعبين نمواً كبيراً ، حتى تضيق به المساحة التي يشغلها فتفيض منه موجات هجرة إلى الأراضي المجاورة ، التي يشغلها شعب آخر ذولغة مخالفة ، وهنا يحدث احتكاك وصراع لقوى ، تكون الكلمة الفاصلة فيه لأكثر الشعبين عدداً ، ولأوفرهما قسماً من الحضارة .

وعامل الحضارة في هذه الحالة عامل مهم ، وذو تأثير خطير ، يفوق تأثير العدد الكبير ، ذلك لأن الحضارة قادرة على امتصاص التأثيرات المخالفة لمجالها ، وتمثلها .

ومن حالات هذا الصراع أيضاً أن يؤثر شعب على شعب مجاور له بنفوذه السياسي ، فتتغلب لغة الشعب ذي النفوذ الأقوى ، ومن أمثلة ذلك ما يحدث الآن بين اللغة الروسية والشعوب التي يقوى فيها نفوذ الاتحاد السوفيتي ، وبخاصة في ولاياته الآسيوية ، فلا ريب أن لغات عديدة قد انقرضت ، أو هي في طريقها إلى الانقراض بتأثير النفوذ الروسى على حياة هذه الشعوب ، وهو نفوذ يقوم على الانتصار للإيديولوجية الشيوعية ، وإذابة

ما عداها من عقائد^(١) ، متخذاً من اللغة الروسية أمضى أسلحته على الإطلاق .

وقد قام بعض اللغويين بدراسة تأثير اللغة الفرنسية ، وهى لغة مشتركة تمثل مدنية منظمة تنظيمياً قوياً ، على مجموعة اللهجات المحلية ، واختار منها اللهجة البريطانية الشائعة فى مقاطعة بريطانيا ، وذلك فى ضوء دراسة العلاقة بين اللغتين الفرنسية والألمانية فى سويسرا ، فقرر أن كلتا الحالتين لا تشبه الأخرى ، إذ أنه فى حالة الفرنسية والألمانية تتقدم اللغتان وتتهقران ، على نحو ما يفعل جيشان متجابهان ، فتأخر إحداها أو تقدمها معناه انتقال فى الحدود . أما الحدود اللغوية بين البريطانية والفرنسية فلم تكن تتغير منذ قرون ، رغم التقدم الأكيد الذى ربحته الفرنسية فى بريطانيا .

فى بريطانيا توغلت الفرنسية فى كل اللهجات دون استثناء ، ولغة المدنية تحمل معها تياراً جارفاً من الكلمات الجديدة ، التى تمثل أشياء وأفكاراً وعادات جديدة ، كما أن الآداب والدين قد ملأ البريطانية بالكلمات الفرنسية ، وذلك منذ نهاية القرن الخامس عشر ، وهذا آت من أن الفرنسية هى التى تقدم للبريتانيين بالطبع نماذج لكتب العبادة ، تذيب ، فظلت البريطانية تنحصر شيئاً فشيئاً فى الاستعمالات الزراعية والخاصة ، وأخذت الخدمة العسكرية ، وتعليم الفرنسية فى المدارس ، يعجلان هذه الحركة منذ نصف قرن^(٢) .

(١) يظفر الإسلام فى ولايات الاتحاد السوفيتى بنصيب كبير من الحرب ، وتعمل الأجان الخاصة التى يؤلفها الحزب الشيوعى هناك على تلجيد المسلحين ، وهناك أيضاً ما يسمى بأكاديمية الإلحاد لإعداد المناهج العلمية من أجل القضاء على الإسلام فى الولايات الإسلامية ، توكياً للخطر العقائدى الذى يمثل وجود الإسلام فى نظر الماركسيين ، فهو البديل الوحيد المتفوق على سائر إيديولوجيات البشر .

وهناك أمر هام هو أن توغل الفرنسية ظل زمنا طويلا يقوم على نوع من التسرب غير المحسوس ، إذ كانت البريتانية تتلقى على غير شعور منها عدداً من الكلمات الفرنسية يزداد يوماً بعد يوم ، ولكن البريتانيين كانوا يوالون الكلام بالبريتانية ، ولو طعمت بالكلمات الفرنسية .

أما اليوم فقد أصبحت غالبية البريتانيين العظمى تتكلم اللغتين ، ومن ثم انتقل ميدان المنافسة بين اللغتين إلى أذهان المتكلمين أنفسهم على شكل ما ، وفي هذه المنافسة خطر على البريتانية ، إذ أن الفوائد التي يمكن الحصول عليها من معرفة الفرنسية تفوق كثيراً تلك التي يمكن الحصول عليها من معرفة البريتانية وحدها ، هذا إلى أن الفرنسية لغة بوجوازية ، وتستعمل دون سواها في مجتمعات المدن ، فهي تغري بنات الحقول بالتكلم بها ، كما تغريهن ثياب الطبقة الراقية بلبسها ، يضاف إلى ذلك أن روابط السكان البريتانيين بالاجتمع البوجوازي تزداد يوماً بعد يوم ، فمنهم الموظفون ، وخدم المنازل الذين يتكلمون الفرنسية مع مخدوميهم ، وقد جعل اتساع السياحة من الأجني ومن البوجوازي مورد رزق المواطنين ، وهذا يجعل التكلم بالفرنسية ميزة وضرورة في آن واحد . إلى غير ذلك من صور الاتصال بين اللغتين ، والصراع بينهما .

وهكذا صارت الفرنسية لغة مشتركة بالنسبة لمقاطعة بريتانيا ، في حين أن البريتانية بلهجاتها المتعددة لم تصل يوماً إلى هذا المركز ، فالتناحر بين البريتانية والفرنسية يرجع إذن في نهاية الأمر إلى فعل الأسباب الاقتصادية^(١) .

هذه الصورة عن صراع اللغتين صراعا سلميا يمكن أن نتصور
مثيلتها هنا ، في مصر ، فإلى جانب العربية التي يتحدث بها أغلب السكان
نجد أن هنالك لغة أخرى يتخاطب بها مجموعة من الشعب ، هي اللغة النوبية ،
ويمكن قياس مركز هذه اللغة بالنسبة إلى العربية بمركز البريتانية بالنسبة
إلى الفرنسية .

غير أن اللغة النوبية كانت إلى زمن قريب جدا معزولة عن مجال تأثير
العربية عزلا يكاد يكون تاما ، وذلك في الأراضى والجبال التي غطاها الآن
النيل ، في بلاد النوبة ، بعد بناء السد العالى ، وقد كان وضعها هذا المنعزل
يفرض عليها أن تبقى بعيدة عن تأثير العربية قليلا ، إذ لم يكن يتأثر بالعربية
سوى أولئك الذين وفدوا إلى القاهرة يمارسون فيها بعض الأعمال ، وهؤلاء
لا يعودون إلى النوبة القديمة إلا على فترات متباعدة ، ولأيام معدودة ، ومن
هنا كان تأثير العربية فيما يبدو ضعيفا في النوبية .

أما الآن ، وبعد أن تم تهجير شعب النوبة إلى الأرض الجديدة ، شمالى
أسوان ، فإن تاريخا جديدا قد بدأ في حياة هذا الشعب يفرض عليه الاحتكاك
 والاتصال بالشعب العربى فى الوجه القبلى ، وأغلب الظن أن وضع اللغة النوبية
سوف يتغير بعد عدة أجيال .

غير أننا نرى أن تأثير الحياة والصراع الجديدين سوف يكون بطيئا
جدا ، نظراً لتأخر المستوى الحضارى فى هذه البقاع عن المستوى الذى بلغته
القاهرة ، اللهم إلا إذا نظمت حملات إعلام ، واستغلت أعمال التعجير

والإنشاء ، المتنامية في المنطقة ، في إضافة المزيد من القيم الحضارية إلى حياة الشعب النوبى بوجه خاص ، والشعب القبلى بوجه عام .

ولا شك أن حالة لغوية كهذه جديرة أن تتابعها الدراسات اللغوية الحديثة ، وأن تلاحظ فيها ظواهر الصراع وخفاياه ، وهى فرصة يمكن أن تلتقى أضواء كاشفة على ما أمكن التوصل إليه من حقائق ونظريات عن الصراع اللغوى في العصر الحديث .

نتائج الصراع اللغوى ومراحلها

هذا الصراع الذى اختلفت ضروبه وظروفه ، لا يحقق نتائج من انتصار اللغة الغالبة على اللغة المهزومة دفعة واحدة ، فقد سبق أن ذكرنا أن ذلك قد يستغرق فى بعض الحالات قروناً طويلة ، فى حالة انتماء اللغتين إلى فصيلة واحدة ، والأمر أعسر من ذلك بكثير فى حالة اختلافهما .

وإلى جانب العنصر الزمنى وأهميته فى الصراع اللغوى وجدنا عنصر الحضارة ذا تأثير حاسم فى مصيره ، إذ أنه إلى جانب هذا العنصر تهون قيمة التفوق العددي ، كما أنه فى حالة انعدام الحضارة لدى الجماعة اللغوية الغازية لا يمكن أن يؤتى الصراع نتيجة المرجوة إلا إذا تشابه المغلوبون مع الغالبين فى عدم الحضارة ، وبذلك يكون النصر للأكثرين عدداً ، ومن هنا نعلم أن أهم عوامل النصر فى الصراع اللغوى هو : الحضارة ، وأهم شرط لتحقيق هذا النصر هو : الزمن ، ويأتى التفوق العددي من حيث قيمته التأثيرية فى المرحلة الأخيرة .

وبقى أن نعرف المراحل التى يتم بها انتصار لغة على أخرى ، وقد حددها الدكتور وافي^(١) بثلاث مراحل :

١ — المرحلة الأولى :

وتقذف فيها اللغة الغالبة اللغة المغلوبة بطائفة كبيرة من مفرداتها ، وهى الكلمات التى تمثل بالأخص الجانب الحضارى ، الذى لم يألفه المغلوبون

(١) علم اللغة السابق

ولا ارتقوا إلى مستواه ، ويشمل ذلك أسماء المخترعات والآلات ، كما يشمل العادات المخالفة ، والتقاليد الرسمية والشعبية ، ومصطلحات العلوم ، وألفاظ الحضارة ، وبذلك يضعف المتن الأصلي للغة المغلوبة ، ويتجرد من كثير من مقوماته .

ولكن اللغة المغلوبة تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بقواعدها ، ومخارج حروفها ، وأسايلها في نطق الكلمات ، فيؤلف أهلها عباراتهم ، ويصرفون مفرداتهم وفقا لقواعدهم التنظيمية والصرفية ؛ وينطقون بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقا لأسلوبهم الصوتي ، ومخارج حروفهم حتى إنهم ليستبدلون ، في الكلمات الدخيلة ، بالحروف التي لا يوجد لها نظير لديهم - حروفا قريبة منها ، من حروف لغتهم .

وقريب من هذا ما نصت عليه كتب اللغة من أن العرب (مع الفارق في القياس) كانوا - إذا عرضت لهم كلمة من الفارسية أو اليونانية مشتملة على صوت لا يوجد مثله في حروف الهجاء العربية - ينطقون بالصوت الغريب في صورة أقرب الأصوات إليه في لغتهم . وقد أشار إلى ذلك أبو الحسين أحمد بن فارس في كتابه (الصحاح) حين قال فيما رواه عن ابن دريد : حروف لا تتكلم بها العرب إلا ضرورة ، فإذا اضطروا إليها حولوها عند التكلم بها إلى أقرب الحروف من مخارجها ، فمن تلك الحروف الحرف الذي بين الباء والفاء مثل (پور) إذا اضطروا فقالوا : (فور)^(١) ، وهي بالفارسية تعنى : الولد أحيانا^(٢) .

٢ — والمرحلة الثانية :

تتسرب إلى اللغة المغلوبة أصوات اللغة الغالبة ، ومخارج حروفها ،

(١) الصحاح / ٢٤ - ٢٥

(٢) المعجم في اللغة الفارسية الطبعة الأولى ٨٦

(١٤ - في علم اللغة العام)

وأساليها في نطق الكلمات ، فينطق أهل اللغة المغلوبة بألفاظهم الأصلية ، وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة من المخارج نفسها ، وبالطريقة نفسها التي يسير عليها النطق في اللغة الغالبة .

ولا شك أن هذه المرحلة لا تأتى إلا بعد الإلف الطويل ، والمخالطة الدائمة بين المتكلمين باللغتين ، فيزداد بذلك تشبع الناس بالتقاليد النطقية الجديدة ، ويزداد تمثلهم لألفاظ اللغة الغالبة . فيأتون بها على وجهها الصحيح ، أو قريباً منه ، ومن هنا يزداد أيضاً ابتعادهم عن تقاليدهم النطقية الأصلية ، وينحل النظام الصوتي ليحل محله بالتدريج تلك النظم الدخيلة .

غير أن اللغة المغلوبة في هذه المرحلة تحاول أن تقاوم الغزو اللغوي المتزايد فيتشبث أهلها بقواعد تصريفهم للكلمات ، وقواعد تركيبهم للجمل ، وبما امتازت به لغتهم من عبارات مأثورة ، وأمثلة محفوظة ، تحمل في نظرم خلاصة تجارب القرون ، فيظنون يتمثلونها في مواقفهم ، كبقية من البقايا الثمينة التي يفرعون إليها ، ولكن ذلك لا يمنع طغيان التيار الغازي ، وتدفع موجاته العارمة في محاولة للقضاء على هذه المقاومة .

٣ — المرحلة الثالثة والأخيرة :

هي التي تنهار فيها مقاومة اللغة انهياراً تاماً ، فتستسلم للصراع ، وتسقط معارقلها المتبقية ، معقلاً في إثر معقل ، إلى أن يسقط معقل القواعد النحوية ، وبذلك يسدل الستار عن فصل تاريخي من فصول الصراع اللغوي ، بين لغة منتصرة فرضت نفسها ، ولغة مهزومة انسحبت من المجال ، أو على الأصح ماتت على ألسنة أصحابها ، وانقرضت انقراضاً يكاد يكون كاملاً .

على أن هناك حقيقة ينبغي أن نتذكرها دائماً ، هي أن اللغة التي أصبحت

مغلوبة لا يقضى عليها قضاء تاما ، وإنما الملاحظ أنه لا بد أن تؤثر هي الأخرى في اللغة الغالبة ، وأن تترك فيها بعض بصماتها ، لأن المتكلمين الجدد يتميزون ولا شك ببعض الصفات النطقية ، التي تطبع نطقهم بكلمات اللغة الجديدة ، فالصورة التي سوف ينطقون بها هذه اللغة لا بد أن تكون متأثرة بهذه الصفات ، وحينئذ يمكن أن نقرر ظهور صورة جديدة قد تطورت إليها اللغة الغالبة على ألسنة المغلوبين .